كى أنقل الآيات التى سطرتها ولولا ما قاله الأب بروغلى من ان تقدم الاسلام أمر مندرج تحت مابشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الاسلام ولا ذهبت الى ان فى انتشار هذا الدين سراً من الاسرار الربانية

﴿ الفصل السابع ﴾

« الاسلام فى الجزائر »

استعصاء المسلمين على التنصر — المبشرون بغير رسالة — جمعيات الدين في الاسلام — غرض تلك الجمعيات — تحول الهيئة فى المسلمين — التقليد — التورات

شاهدنا الاسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين فى أواسط أفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن وله كذلك فى الشمال الشرقى من بلاد الزنج وفى مصر العليا (السودان) وفى (سرينلق) مايدل على قوته الغريبة وسيره المدهش اذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدى ومملكة امام جغبوب منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية التى أرادها النبى الاسلامى كذلك توجد فى الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة فى شمال أفريقيا وهى على نسقهما ولا تزال تقاوم هجمات الديانة المسيحية ظافرة عليها ونعنى بها مملكة مراكش ولا شك فى ان سلطانها مع ماعليه بعض العشائر التى تسكن البلاد الخاضعة لحكمه من عدم الاذعان تماما لسلطته سيكون

اذا ألمت بتلك الاقطار المحن حمى حوزة الدين الاسلامى فى الغرب باجمعه ونحن نترك البحث فى حال هاتيك الممالك الاسلامية التى اجتمعت فيها السلطة الدينية والسلطة السياسية فى يد حاكم واحد طبقاً لقواعد القرآن وهى البلاد الممتازة التى حفظ الموحدون فى مكة لها اسم دار السلام وهو الاسم الذى تميل اليه نفس مصر وتركيا على غير جدوى حيث التمدن الغربى قد كدر صفاء المذهب الاصلى ونقتصر على الاسلام فى الجزائر وفى ممالكنا الافريقية حيث يزاحمه الدين المسيحى والحكومة المسيحية وهى البلاد التى سماها المسلمون دار الحرب أى دار الجهاد فى الاسلام والبحث عن الاسلام فيها يدور على ثلاث مسائل . هل أحدث الانجيل تغييراً فى القرآن واذا فرضنا ان الاسلام لم يزل محفوظاً هل حصل تقرب بين المسلمين والمسيحيين يرجى معه حصول الامتزاج التام فى المستقبل وهل الجهاد اعنى خروج المسلمين عن طاعة حكامهم المسيحيين لايزال امراً منتظراً يهدد فتح هاتيك الاقطار

فاما الاسلام فليس من اهله من يمرق عنه الى غيره وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر حتى انهم لايجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتيه كما انهم تحيروا فى وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنساوية لان فيها معنى من معانى الردة ولذلك اضطروا الى استعمال لفظ من الفاظ اللغة الفرنساوية ليطلقوه أسما عليهم فقالوا (متورنى) باسكان الميم وضم التاء ومعناه المنقلبون .

ومن الصعب ان يكيف الانسان حالة مسلم يريد أحد المسيحيين از

ينصره حتى لو شبهناه بمسيحى متنور يريد وثنى ان يميل به الى عبادة الاصنام لكان التشبيه ناقصاً والسبب فى استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية استعصاءً قويا هو احتقاره النصارى واعجابه كل الاعجاب بكونه من الموحدين وقد يعتقد بعضهم ان فضل دينهم يفوق على النصرانية بدرجات يستحيل معها على المسيحيين ان لا يوقنوا بصحة الاسلام حتى انهم يتخذون مسالمتنا اعترافا ضمنياً منا بتلك الافضلية ولانهم انما يعبدون الله تعبداً ذهنيا وليس لدينهم من علامات أو معدات خارجية ويرون فى احتفالات النصارى ضربا من ضروب العبادة الوثنية ويسمون ارباب الانجيل أهل الكتاب ولكنهم لا يجعلونهم فى الرتبة التى تلى رتبة المسلمين بل كثير منهم يمقتونهم أكثر من مقت الوثنيين لكونهم غيروا ما انزل الله عليهم من الدين بعد ما علموه

تلك هى افكار المسلمين فى الديانة المسيحية وبديهى انها مانع حصين يحول بين النصرانية وبين التقدم فلقد نجح المرسلون فى تنصير الامم المختلفة التى انتشروا فيها سواء كانت متبربرة أو متمدنة ولكنهم لم يروا فى طريقهم بلداً قام فى وجههم وسدت عليهم فيه جميع ابواب الفتح كما لا قوا من المسلمين لاننا شاهدنا الوثنيين المتمدنين تركوا دينهم الهمجى لعدم موافقته لما وصلت اليه عقولهم من التهذيب وكان لهم من تهذيبهم معين على تلقى المعقولات المحضة فسهل ذلك على المسلمين عرض مذهبهم بطريق التقرير المنطقي وتمكنوا من اقناعهم حتى ان القديس بولس نفسه كان يلاقى كثيراً من الوثنيين الذين يتركون آلهتهم لتبينهم كذبها ويرى من بعض اليونان

ميلا الى أخذ الامور بالدليل والبرهان وقد سهل ايضا تنصير لوثنيين المتبربرين بما للمرسلين عليهم من المزية فى العلم والافضلية فى سمو الادراك ولكن أى مرسل وأى خبير يمكنه ابداً ان يزحزح المسلم عن تمسكه بدينه ويجعله يعبد ما احتقر ويحتقر ذلك الدين المتين الذى يرى فيه مجده الاعلى وكيف يمكن لأولئك المرسلين ان يزيلوا من فكره ما تمكن منه ضد الديانة المسيحية الى الابد وهو لا يقبل المناظرة فيها ولا يطيق الجدال عليها : . . . .

ولقد تسألوا عن امكان محاربة الاسلام بالعنف والقوة حيث هو لا يقبل التبدل بالاقناع والحجة ولكنه ما كان يتيسر للفرنساويين ايام الفتح ان يخضعوا المسلمين للدين المسيحى كما فعل الملك شارلمان بل اضطرت الكنيسة الى السكون كما التزمت جانب المسالمة فى هذه الايام بين الامم والمسالمة حكمة منها ولكنها لا تقبلها بصفة مبدأ من مبادىء الدين المسيحى بل تردها رداً . هكذا كان محظوراً علينا كل قهر فى الدين طبقاً لمعاهدة الجزائر حيث التزمت فيها الحكومة الفرنساوية بواسطة الجنرال (بورمون) ان تحافظ على ديانة رعاياها من العرب وتحترمها وقد كاد ان يحصل استثناء سنة ١٨٦٨ ذلك ان اسقف الجزائر أخذته الحمية وارادان ينصر عددا كبيراً من المسلمين فجمع كثيراً من اليتامى بعد القحط المهلك الذى ابتليت به الجزائر وعمدهم ولكن الجنرال (مكماهون) حاكم البلاد اذ ذاك تداخل وابطل هذا المسعى لمخالفته لما تعهدت به فرنسا ومن عجائب المتناقضات ان في الجزائر الآن من الكتاب من يأسف على ترك تلك الطريقة ولو انهم كانوا في عاصمة

بلادهم لاصطفوا بين أشد الناس دفاعا عن حرية الاديان فكأنهم يرجون حكومة تسعى فى تفريق الاديان بالهدايا وبذل الاموال من جهة وتضطهد المسلمين الموحدين فى دينهم من جهة أخرى ولو انه قام فى مبدأ الفتح قس ماهر وساعده امير يميل الى انتشار الدين المسيحى من نفسه أو بتأثير النساء عليه فجمع ذلك القس اليه كل ساخط على الحكومة والحال الجديد ووعدهم بالمال وعزة الجاه لكان لنا سنة ١٨٧٠ آلاف مؤلفة من العرب قد تركوا دينهم وتربوا تربية فرنساوية حقة

فاستعصاء المسلمين على التنصر بواسطة المرسلين واستحالة اخضاعهم بالقوة هما السببان اللذان يعترضان تنصرهم والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملوا من الجهاد فى سبيلها ولم تنحط عزائمهم امام صلابة الاسلام فاينما نزلوا مهدوا الطريق وآووا الفقراء والمساكين واقاموا فى خدمة المرضى ونشروا التعليم بين الاطفال قال موسيو (سريفاريا) ولكنهم لم يحوموا حول مسئلة الدين مطلقاً وهم انما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الاحبار على انهم لم ينجحوا فى ادخال الانجيل بين العرب فقد كانوا من احسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنساوية والحكومة مخطئة فى عدم حمايتهم والمجافاة فى معاملتهم مع انهم قصروا حياتهم على خدمة الدين ومع ذلك فقد خالفوا ضمائرهم وعملوا على مافيه منفعة فرنسا تركا لما لا يستطاع ولات حين زمان اصلاح مافات فقد انتشر المرسلون من الانكليز البروتستانت بين القبائل وجعلوا يقلصون ظل سيادتنا هنالك ترسل الدولة البريطانية

التوراة تحملها الرعاة الى تلك البلاد التى فتحها جنودنا مرات متتابعة كما ترسلهم فى جميع ارجاء المسكونة وعلى الخصوص حيث تخشى تقدم النفوذ الفرنساوى

ولقد بقى الاسلام سليما على التمام فى الجزائر الا ان المسلم لاحظ كونه محكوماً بمن لا يعتقد بدينه فاخفى فى نفسه مايضمره له من البغض والاحتقار ولولا ان قوماً من اصحاب الدين يحركون على الدوام فى قلبه عاطفة الايمان لصح الامل بضعف اسلامه مع مرور الايام ولاولئك القوم جمعيات سرية تعمل دائماً على تجديد الدين الاسلامى بين جميع الموحدين وعلى الخصوص بين الامم التى اخضعها المسيحيون

ومن المعلوم ان فتوح العرب وحكومة المغاربة فى اسبانيا بعده جمعت بين افريقيا وأوروبا زمناً طويلا ولكن انتهى الامر بان انزوى الاسلام الى مابعد بوغاز جبل طارق وانقطعت الصلة بين القارتين بطرد المغاربة سنة ١٦٠٩ وشخص الناس الى بلاد الغرب كانها ملجأ للقرآن منيع لاتصل اليه الاطماع وارض بعيدة عن الاختلاط بالمسيحيين واعتقدوا بان الدين الاسلامى يصير كأنه فى بلاد عرب جديدة يزاوله الناس على صفائه القديم فلما فتحت فرانسا بلاد الجزائر انتهكت حرمة الاسلام ورجعت الصلات ثانية بين افريقيا الاسلامية وأوروبا المسيحية وانفتح الباب فى ممالك الغرب الى عدو أشد وقعاً على القرآن من الجنود المجندة وهو التمدن الحالى ففطن المسلمون الى ما أحدق بهم من الاخطار وارادوا تمكين الجامعة وتوحيد الروابط بينهم وهى عند المسلمين أشد قوة منها لدى غيرهم من الامم التى

تدين بدين واحد لان القرآن شريعة دينية وقانون مدنى وسياسى ومن ذلك وجدت حركة فى النفوس غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة وعلى الخصوص مغالبة التمدن الجديد باسم الايمان قال القائد (رين) وتأتى قوة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطوائف الدينية التى وجدت من أول هذا القرن وعظم شأنها فى جميع الانحاء وصار لها تأثير شديد فى قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التى لا حد لها وغير الاسلامية كمبشرين أو مستعطين أو قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الاقطار من مكة الى جغبوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى زنجبار ثم كلكتا وجاوه ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والطبيب والصانع والشحاذ والسائل والمشعوذ والمتشرد والمجذوب تصنعاً أو المأخوذ على غير شعور منه برسالته وكلهم يلاقون صدوراً رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين الذين يحمونهم من النوازل ويدرؤن عنهم تهجم الحكومات

ونحن لانريد أن نأتى على تاريخ تلك الطوائف الدينية المنتشرة فى الاسلام كما فعل القائد (رين) بل نكتفي بالاشارة الى سبب نراه العلة فى انتشار هذه الجمعيات فى أيامنا وبعد ذلك نبين المقصد الذى يرمون اليه فى الجزائر

فاما المشايخ المعروفون عند المسلمين فلا تاثير لهم عليهم لان العبادة ذهنية أو هى قلبية فلا تحتاج لقوام كما انها لاتحتاج لمساجد أوجوامع ومن أعجب العجب انه لادرجات فى تلك الجمعية مع انها دينية صرفة فلا يعرف

الناس الا رئيساً واحداً هو الامام أى خليفة النبي فاليه مرجع السلطتين الدينية والسياسية ومن هنا يسهل على المتأمل معرفة الاضطراب العظيم الذى حصل فى المسلمين من فتوحات المسيحيين ودخول التمدن الاوروباوى فى بلادهم لان نتيجة ذلك ضياع السلطة الوحيدة التى يخضع لها الاسلام اذ لم يعد يوجد الآن امام عام للموحدين نعم ان سلطان القسطنطينية يعتبر نفسه خليفة الرسول ويتسمى باسم شيخ الاسلام الاَّ ان هذا اللقب فى اسناده اليه لقب تشريف ليس الا غير معترف به فى الولايات الخارجة عن حكمه والدول الاوروباوية أفرغت جهدها فى تحقيره بعوامل التأثير والتذليل التى الجأت الباب العالى اليها فلو لم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين وجمعهم فى صعيد واحد لاصبح المسلمون كقطيع عظيم من الماشية بدون راعٍ ومن هنا تعلم ان كثرة الطوائف الدينية فى الاسلام وكثرة المريدين فيها فى هذه الايام ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين والتوازر على صيانة الجامعة بين المسلمين

وقد كانت هذه الضرورة أشد فى الجزائر منها فى غيرها من البلدان فان الفرنساويين أوجدوا فيها جمعية روحانية اسلامية رسمية لمقصد لم يدم الا كما يدوم الخيال هو التأثير على الاهالى بواسطة الدين ورتبوا لاعضائها مرتبات يتقاضونها من الحكومة فكانوا شنعة فى أعين المسلمين ولو انهم بقوا لتوصلوا فى الغالب الى استمالة بعض الاهالى ولكن الطوائف الدينية الحرة قاومتهم واسقطت مقامهم بين الناس ونجحت فى مقصدها تماماً وليس اليوم من كلمة تطاع الا اذا كانت صادرة عن أحد رؤساء هاتيك الطوائف

وأولئك الرؤساء يميلون على الدوام الى الزهد والتقشف ولهم تعبير فى القول لايفهم عمال الحكومة منه شيئاً اذا عثروا على بعض الفاظه فهم يدعون الناس تحت طىّ هذا الطلسم الى مقاومة التقدم ومغالبة التمدن باقصى المجهود ذلك انهم آمنون من جهة تنصر المسلمين فهو أمر معدوم كما قدمنا ولذلك اجمعوا أمرهم على مقاومة سير التمدن لكونه ربما أدى الى فتور فى الاعتقاد عندهم وهم الذين يحيون روح احتقار النصرانية فى النفوس ويجعلون اجتهادنا فى تأليف أهل الجزائر واستمالتهم الينا يذهب هباء منثوراً

ومع انتشار الطوائف الاسلامية في الجزائر وقوة تأثيرها فانها لم تتمكن من منع تغيير الاهالى من حيث هيئتهم الاجتماعية تغيراً محسوساً والعامل فى هذا هو الاحتلال الفرنساوى كما أشار اليه موسيو (شاتليه) حيث قال تنقسم أهالى الجزائر الى ثلاثة أقسام فمنهم الرعاة الرحل وأصلهم من العرب ومنهم الريفيون أصحاب الزراعة واغلبهم ينتمون الى القبائل ومنهم اخلاط المغاربة ومنهم المدنيون وهم التجار والصناع وقد حصلوا على شىء من المعرفة الصناعية وأصلهم مختلط منهم من المغاربة الذين اختلطوا بالاتراك وامتزج فيهم ايضا دم العرب والقبائل اه

ويختلف تأثير التمدن فى الجزائر باختلاف هذه الطبقات الثلاث ولكنه احدث فى كل قسم منها ميلا الى حالة مدنية جديدة فقد خفف الرحل روحاتهم وجيآتهم وصاروا نصف رحل وبعضهم مال الى زراعة الاراضى الخصبة فى مرتفع الوديان ومنخفضات الصحراء وتدحرج سكان الارياف الى التخلق باخلاق المدنيين وأما هؤلاء فقد تأثروا كثيراً لاختلاطهم

باصحاب المعاملات التجارية ومعاشرتهم لاصحاب الصناعة الاوروباوية وتعودهم على الاخذ والعطاء مع أهالى البلادالغربيةوكثيراً ماأخذ العربى الذى يسكن المدائن عن التمدن الاوروبى رذائله ومعائبه وخالف أوامر القرآن وشرب المسكرات وهو فى الغالب مفرطاً فى تعاطيها وأكل الاطعمة المحرمه الا لحم الخنزير فهو ينفر منه باصل فطرته ومع ذلك فهو لايزال يحافظ تمام المحافظه على بعض أوامر الكتاب كصوم رمضان حتى ان الباغيات يصمن فى اما كن فحشهن

ومع ذلك كله فان عوامل التمدن لم تتمكن من اضعاف الاعتقاد فى قلب المسلم وان زحزحته قليلاعن المحافظه على جميع اوامر القرآن بل لايزال الايمان عندهم تاماً كاملا خلافا لمايراه موسيو (شاتليه) فانه يحسب ان عددالمسلمين الذين لايؤمنون ولا يقيمون الفروض يزداد كل يوم فى مدائن الجزائر وعندنا ان هذا القول صحيح بالنظر لترك الواجبات ولكنا نراه مخالفاً للواقع من جهة ضعف الاعتقادات فما من مسلم صار غير مقيد فى الاعتقاد بل يجوز انه أهمل جميع الواجبات ولكن اعتقاده لم يتحول وصحيح فى الاسلام ان يبقى الرجل مسلما وهو لايعمل بما يمليه عليه القرآن

ولعمرى لست أدرى ان كان هذا التغيير على نحو ماشرحناه عنوان تقدم فى اهل الجزائر وانه رفع من أخلاقهم وزاد فى رغد عيشهم وعلى الخصوص قلل من بغضهم للمسيحيين . أنا لاأظن ذلك فانى وان سلمت بان بعض قبائل البدو الرحل مالوا الى الزراعة ولكنى لاأرى فى انتقالهم من البداوة الى الزراعة ومن الزراعة الى سكنى المدن

والامصار موجباً لتهذيب الاخلاق ورفع درجة الآداب لان معيشة القبائل على حالتهم الفطرية مهما كان فيها من النقص هي أشد احتفاظاً على الاخلاق واعظم باعث على التمسك باصول الادب فليس من سلام على النفوس الا معيشة الرجل بين اهله بعيداً عن المدن وما حوته فالمعيشة في الصحراء ناشفة يابسة ولكن ما ضمنته الخيام ليس عرضة للتبدد والضياع اما اذا سكن العربي في المدينة خصوصاً المدن الاوروباوية فانه يكون على مقربة من دواعي اللهو وتزداد حاجاته ويطلب القهوة والحلوى وتميل امرأته الى الملابس القطنية ويده لا تقوى على سد هذه المطالب كلها فيعيش في ضجر مادي ينشأ عنه ألم ادبي ولقد شوهد كثيراً ان الضنك يشتد على القبائل بقدر تقربها من المدن الاوروباوية فاول القبائل التي خضعت لحكم الفاتحين واختلطت باقوامهم كانت اول القبائل التي لحقها الدمار وابادها الاندثار وانحطاط المدني ادبياً هو السبب في احتقاره من ساكن البادية اكثر من حالته السيئة التي يعيش فيها . وليس لفرنسا ثمرة تجنيها من انحطاط رعاياها المسلمين في الجزائر ادبياً ومادياً ولهذا نرى الحكومة بحثت عن مداواة هذا الداء وارادت تهذيبهم فاوجدت التعليم الفرنساوي عندهم وانشأت مدارس للتعليم الابتدائي واخرى للتعليم الثانوي ومدارس للصنائع ولكنها ما كانت لتنجح في هذا المسعى لانه مهما حسنت نوايا المسيحيين لا يأمنون من حبوط مساعيهم في تمدين الاهالي وان شئت قل ان كل امر يأتي على ايديهم ممقوت ومرذول لذلك كان التعليم الفرنساوي معيباً من الاصل ولم ينجح في شيء حتى ولم يقلل من نفور الاهالي نحونا

واليك ما قاله أحد اعضاء جمعية التعليم موسيو (شارفريا) فى هذا المعنى (اذا اردت ان تعرف مقدار بغض الاهالى لنا فانظر الى درجة تعليمهم الفرنساوى فكلما زاد تعليمهم وجب الحذر منهم) وقد مكثت زمنا طويلا أقاوم هذه الحقيقة التى توجب اليأس وتقطع الرجاء ولم ارجع عن رأيى الا لما رأيت جميع من شاورتهم فيها متفقين على تقريرها)

وقد قال حاكم الجزائر نفسه موسيو (ترمان) فى مجلس الادارة الاعلى سنة ١٨٨٦ (لقد دلتنا التجارب على ان اكثر الناس عداء لنا هم اولئك الذين علمناهم كثيراً) على ان الحكومة نفسها قد اعترفت بعجزها عن تحويل الجزائريين الى فرنسويين بواسطة التعليم الفرنسوى ولم تتمكن من احياء التعليم العربى وان اكثرت من فتح المدارس كما ان جميع الصنائع والحرف الاهليه قد اندثرت على مقربة من مدارسها الصناعية والفنية التى أنشأتها . والذى نستنتجه من هذه التجارب التى لم تجد نفعاً هو ان مسئلة التقريب بين العنصرين الاوروبى والاهلى لا يمكن حلها بمعرفة الحكومة لان يد الادارة يد ثقيلة لا تصلح لعمل لطيف مثل هذا وحدة الموظفين مانعة من التبصر فلا صبر لهم على انتظار الثمرة الصغيرة زمناً مديداً وبالجملة فان كل وسيلة تتخذ فى سبيل التقريب الذى نبحث فيه رديئة نعم قد يمحو الدهر بعض المتناقضات ويولد بعض المتشابهات ولكن لن يحصل اتحاد تام بين العنصرين مدى الابد وكم من أوهام توهمها الناس في مسئلة الجزائر يضحكنا اليوم تذكار بعضها كالذى تخيله موسيو (دولانجل) أيام كتب تقريره على مشروع استشارة الامة سنة ١٨٦٥ حيث ذكر فيه هذه الجملة (ولم يبق الا

زمن يسير حتى تفتخر الامة التي بلغت عواطف الشرف فيها لدرجة القصوى بالاشتراك في أعمال الامة الفرنساوية التي لها في العالمين مقام رفيع) ومن الخيال أيضاً ماذهب اليه موسيو (لورو بوليو) من أمكان التوصل لجعل العرب رعية صادقة من المخلصين في الولاء فمستغرب ان يفكر اولئك القوم في رجاء هذه الفوائد من الجزائر وفي ان يصل أهلوها الى تقرب يحملهم يوماً من الايام على حب الوطن الفرنساوي ولو صحّ هذا لكان أمراً خارقا للعادة لم يسبق له مثيل في التاريخ فانا نعلم ان اختلاط العنصرين ببعضهما دام تسعة قرون في بلاد الاندلس من سنة ٧١٠ الى سنة ١٦٠٠ ولم نشاهد مع ذلك ان وطن الغالب صار وطناً للمغلوب ومع ذلك فالوهم عندنا متسلطون في ان نطالب الجزائريين بما نطالب به الفرنساويين من الولاء والاخلاص

اتفق سنة ١٨٨١ انه في مبدأ ثورة ابي عمامة قام احد القوادوكان من أشدهم موالاة لنا وتوجه برجاله الى جنوب ولاية حوران لقتال المنشقين فلما رجع علم بان قبيلة خرجت عن الطاعة ورفعت خيامها ورحلت بنسائها وأولادها وماشيتها فذهب الى مراكش في طلبها وعادبها بعد سنة من الزمان واقنعها بوجوب الطاعة والخضوع فاحيل الى المحاكمة أمام مجلس عسكري بحجة انه خان الدولة الفرنسوية . وفي الواقع انه لم يخلص لنا الود اذ كان يلزمه على رأيهم ان يترك لنا عائلته وأملاكه ولكنا نعلم ان كثيراً من الفرنساويين لايودون ان يكون مثل هذا الطلب محكا لوطنيتهم ومعياراً لمعرفة صدقهم لبلادهم

ولسنا نود ذكر جميع الخيالات التي تصورها الباحثون في طريقة

التقريب لان ذلك شرح يطول فمنهم من ذهبت به الاحلام الى تصور الجزائر آهلة بعرب يلبسون القبعة ويلفحون السترة الصغيرة (جكيته) وقد نسوا لغة الوحى المقدسة وجعلوا يرتلون القرآن بلغة الفرنساويين نقلا عن ترجمة (كزيميرسكى) ورأينا ان البون يبقى شاسعاً بين المسلم والمسيحى وان من السعود ان تقرب الشقة بين الاوربى والعربى وان هذا التقرب يحصل من نفسه وهو ينشأ من التجاء المستعمرين الفرنساويين الى العرب فى حرث الارض وغرسها ولو ان المستعمرين يعاملون العرب برفق ولين ويقسطون معهم لافادوا فى هذا السبيل أكثر مما أفادت اللوائح والقوانين اذ لست ادرى لم ان الرجل منهم يكون فى باريس من الاحرار المتطرفين فاذا جاء الجزائر نزعت نفسه الى احياء أشد الازمان فى حكم الشرفاء تعسفاً واجحافاً وعندى ان أليق الناس بالعمل المطلوب هم المرسلون لا الكاثوليك فلا تترقى الاهالى فى معارج المدنية مع بقائهم على دينهم الا بهم نعم ان الترقى يكون بطيئاً ولكنه يصح أن يسمى تقدما ودليلنا على ما نقول حالة القبائل التى توطنها المرسلون فانهم توصلوا مع أهلها الى درجة عظمى

مضى على الاسلام فى الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال الفرنساوى كذلك تفانت امواج التمدن الاوروباوى تحت أقدام مقاومة الطوائف الدينية فى تلك البلاد ولو ان تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتداراً على قذفنا فى البحر لتقيم بعدنا مملكة اسلامية جامعة (أى بين السلطة الدينية والسلطة السياسية) لاقتحمت الاخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيداً لذلك هم يقصرون مساعيهم على احياء

روح البغضاء فى نفوس تابعيهم مما يكفى لتزكيته غالباً تلاوة بعض الجمل التى ملئت سخطاً على النصارى على ان جميع رؤساء الطوائف المذكورة ليسوا واحداً فى مقاومة التمدن الغربى بل يحذو بعضهم حذو من يضع الشرع ليتقيد به غيره ويستفيد من مكتشفات ذلك التمدن التى حرموها على المرابطين واكبر الطوائف واشدها تمسكا بمبدئها هى طائفة السنوسية وهى التى يخشى منها اكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر اليه البعض كجامع وحدة الاسلام وهو رجل رأى انه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية فى الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر الى فتح أرض غيرها للاسلام وعلم سيدى السنوسى ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين كما علم موسى الذى نجاه الله ما أصاب قومه من فرعون وأراد خلاصهم من يد الكفار وان يقودهم من دار الحرب الى دار السلام فناداهم ان اخرجوا من دياركم ان ارض الله واسعة الفضاء وانتقل الى أرض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ويود الهرب من معاشرة الكافرين ولكن ليس فى تلك الارض عسل يجرى ولا ضرع يدرّ كما كان فى بلاد الكنعانيين بل هى صحراء ليبيا الشاسعة التى اختارها السنوسى ليهجر العرب اليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبوسفور ذى الرياض والمناظر ومع ذلك فالنداء يلبى كل يوم من جميع بلاد الاسلام ويقيم الواردون فى تلك الرمال من غير سخط ولا ضجر كما ترك بنو اسرائيل مصر فى غابر الازمان وما منهم من يأسف على الكسكسو الذى كان يأكله بنهمة تحت حكم الذى كفر وقد أخذت الصحراء

تتحوّل باعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل ومثلهم في ذلك مثل قبائل العباديين الذين هاجروا الى (مازاب) في الصحراء وعمروها

وفي اجتماع المسلمين الذين لم يرضهم حكمنا حول جغبوب خطر أشار اليه وكلاؤنا في طرابلس ومن الواجب على الدول الاوروباوية ان تأخذ حذرها منه اما الجزائر فهي ترى فيهم عدواً لها وما دام الامر بالنظر اليها دائراً بين عدوين فهي تفضل بعد أولئك القوم لانها تكون ببعدهم عنها آمنة مطمئنة من اعمال قوم متعصبين . ومع هذا لو قدر لفرنسا انها احتاجت في احد حروبها الاوروبية الى الاستعانة بجيوشها الافريقية وانتهزت احدى الدول ضعفها في افريقيا فحركت ضد حكومة المسيحيين طائفة السنوسي والطوائف الاخرى فانه يخشى من حدوث ثورة تسوء عقباها في الجزائر ولكنا نرى في هذه الحالة وهي اسوأ حال يمكن تصورها بالنسبة الى الحكومة الفرنساوية ان انشقاق الرؤساء واحقاد الطوائف تمنع الثورة من ان تمتد الى جميع ارجاء البلاد فالفوضى علة الاسلام الباطنية وهي ايضاً في الغالب علة الضعف عند جميع ولد سام فان اسماعيل يضرب خيامه على الدوام تجاه مضارب اخوته ولولا الانقسام الداخلي والاضطرابات التي حدثت بين المسلمين في غابر الازمان لما نجت النصرانية. وهذه الاسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الاسلام ولولاها لما حفظت فرنسا املاكها مع ما ارتكبته من الخطأ وما تأتيه من الاغلاط في افريقيا الشمالية وهي املاك ستبلغ بمقتضى النمو الطبيعي عما قليل عشرين مليوناً من المسلمين

والخلاصة انه لا يخشى من ثورة عامة فى الجزائر ولكن لا تزال تلك البلاد معرضة للقلاقل الثانوية وتنشأ هذه الاضطرابات بغير المؤثرات الدينية فكثيراً ما تثور القبائل من نفسها ورغماً عن نصائح الرؤساء ومشائخ الطرق لانهم واقفون تمام الوقوف على ما نحن عليه من الاقتدار فى كبح جماحهم ولذلك فهم لا يرمون الى حركة عاقبتها وبال عليهم وعلى التابعين لطوائفهم بل ان اكبر اسباب الثورة فى الجنوب رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم لانهم من بقايا اولئك القوم الذين سادوا قديماً فى البلاد وفى جهة التل ضنك الاهالى وخطأ الموظفين في اجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين ومع ذلك كله فانا نرى ان كل ثورة بدأت لا تلبث ان يعزوها اصحابها الى مصدر ديني فينادون بالحرب المقدسة كما ينادون باحد الرؤساء الدينيين ذوى النفوذ قائداً عاماً لحركتهم وان عارض وابى . ومن عادة تلك الحركات انها تبدأ قليلة الاهمية ولكنها تعظم ويكبر شرها بخطأ الموكلين فى اخمادها ولو ان الحكومة لاحظت جانب العدل والحكمة فى ادارة الاهالى والغت الامتيازات القديمة التى لرؤساء القبائل تماماً واختطت السكك الحديدية فى جنوب البلاد وأصلحت من نظام الجيش لقلت حركات الثورة فى بلاد الجزائر وهدأ المسلمون من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى شواطئ نهر النيجر

﴿ خاتمة ﴾

والذى نستخلصه مما تقدم انه يجب على الدول الاوروباوية التى تميل الى التوسع فى الاستعمار ان تتعرف ديانة رعاياها أو أصدقائها المسلمين كما ينبغى اذ الدول لاتزال حتى الساعة على اعتقادها الذى كانت عليه أيام القرون الوسطى وهو ان الاسلام صورة من صور الديانة الوثنية اللهم الا نفراً قليلا من المستشرقين الذين لاتأثير لارائهم فى السياسة مع انه لو جاز عقلا ان ترتب الديانات التى دانت بها المخلوقات لوجب جعل الاسلام اولها بعد ديانة التثليث لانها أى الديانة المسيحية بلا شك ارفع منه من جهة المعقولات فلا يجوز للمسيحيين ان يرموا الاسلام بالوثنية على مابينه وبين النصرانية من جهات الاتفاق حتى صح (لحنا ماسين) ان يقول انه بدعة مسيحية نعم لايقول المسلمون بالوهية ابن مريم ولكنهم يجلونه كاكبر الانبياء (اذقال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) ويعترفون بأن مولده من المعجزات (واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو علىّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت

ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر احداً فقولى انى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسياً فاتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون) كذلك يعتقدون ان جبريل هو الملك الذى نزل بهذه البشرى كما انه هو صاحب الوحى بالقرآن ويكرهون اليهود لانهم اضطهدوا المسيح وأرادوا ان يقتلوه ولا يعتقدون بموته كما تدل عليه آية (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما) وقد التفت الامير عبد القادر الجزائرى الى ما يوجد بين الدينين من التقارب فخال له امكان التوفيق بينهما وكان من ذوى المدارك السامية قال لو اصغى الى المسلمون والمسيحيون لأزلت من بينهم موجبات التنافر ولأصبحوا اخواناً فى الظاهر والباطن وكان يشبه الانبياء الثلاثة الذين قالوا بوحدة واجب الوجود بثلاثة

أخوة من أمهات متفرقة(راجع كتابه نداء الغافلين) ولكنا لانمنى النفس بتحقيق ما خطر ببال ذلك الامير فان الاحقاد التى تتولد بين اعضاء العائلة هى التى لا مرد لها والتشابه بين بعض القواعد لايسد ذلك الخرق العظيم الذى انفرج بين المسيحيين والمسلمين فقد يجوز ان يقلع المسيحيون عن تجهلهم للاسلام ويعترفون بانه دين قريب من دينهم ولكن المسلمين لن يقبلوا ان يكون معنى التثليث غير تعدد الآلهة ولا يعتقدون بان خطأ آدم هو رأس خطايا بنيه وانه السبب فى ذنوبهم ولا يقولون بان المسيح تجسم فى صورة الانسان ولا بانه افتدى النوع البشرى بنفسه ويقول جميع علماء التوحيد عندهم أن جعل المسيح ابن الله لا فائدة فيه ان كان الوالد والولد الهاً واحداً ومتناقض ان كان كل إلهاً قائماً بذاته على ان علماء اللاهوت من المسيحيين مختلفون فيما اذا كان التجسم يحصل لولا خطيئة آدم . كذلك لاينبغى لنا ان نعلق الآمال بالوصول الى تحول رعايانا المسلمين فى الجزائر الى فرنساويين بل يجب علينا أن نجتهد فى ان نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والموادعة وهو حل سهل بسيط لست ادرى لم اهمله الباحثون وقل الاقبال عليه كما انى لم أقف على السبب الذى دعاهم الى الحكم بانه ليس لمسلم الجزائر الا ان يتحول أو أن يفنى وفى الواقع أن الفرنساويين يفرحون بالتحول لكونه يلائم ميلهم الى ايجاد الوحدة فى كل شىء فكل موظف من الفرنساويين يحلم ان تصير مدينة الجزائر مثل باريس مع ماهى عليه من اختلاف ارضها ومناخها وسكانها ولذا اعتادوا على ان يعدوا من التقدم صيرورة بعض القرى مختلطة وتحولها بعد ذلك الى بلاد لافرق بينها

وبين البلاد فى فرنسا وهى ملاحظات تافهة تمنع الناس من الوقوف على حاجات الجزائر الحقيقية اما منح الجنسية الفرنساوية للاهالى فانه لا يفيد الا فى بعض الشؤون الادارية المحضة ذلك لانه يوجب بعض تغيير فى الصورة ويسمح للتقارير الرسمية بتجسيم الاعداد ولكنه لا يجعل الجزائريين وطنيين فرنساويين ومع ان معاهدة الجزائر لا تسمح لنا بايجاد جنسيتنا عليهم فنحن لا نفتأ نعرضها كانها امتياز يختص به قوم دون آخرين وكاننا نظن ان المسلمين يعتبرون من الامتيازات مايحول بينهم وبين العمل بمقتضى ديانتهم ومع هذا يرى موسيو (روسل) ان فى تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنساوية حلاً للمسألة وان الاختلاط يحصل مع الزمن فيتحول السواد الاعظم حتى يصير فرنساوياً وتضيق البلاد على من يخرج عن الجمهور لتغيرها وتحول نزعات الاهالى فيضطرون الى الهجرة جنوباً ويخلفهم قوم آخرون أرفع شاناً وأعلا مكاناً وعندى ان هجرة القبائل الى الصحراء جنوباً وهم باطل كالقول بامكان مضايقة الجزائريين فينزحون عن البلاد رويداً رويداً اما انقراض الاهالى شيئاً فشيئاً كلما دخل التمدن الاوروبى بلادهم فنحن لا نصدقه إلا قليلا لان احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر فى وجودهم بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ونضيف على ذلك ان المسكرات التى استعملها الاورباويون للتعجيل على وجود بعض الامم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتاً شديداً

اذن وجب علينا ان نعيش فى الجزائر بجانب سكانها وفاتحيها الاقدمين

وان نقلع عن التطلع الى التحويل أو التجنيس فكلاهما وهم وخيال ولا خوف من هذا بل الخوف يأتينا اذا أوجبنا عليهم التجنس بجنسيتنا فنالوا مالنا من الحقوق السياسية . ولو تنزل حكامنا الى تعرف امة الجزائر التي يجهلونها أو يعرفونها على غير الواقع وعملوا على مرضاتها ببعض ماتميل اليه وتخفيف شيء من أثقالها لانتفى الخوف منها وزال خطرها وتصير أعظم مساعد على الاستعمار ولرب معترض يقول ان تلك سياسة مبهمة فنجيب بانها كذلك وهو مقصود لان السياسة المرتبة على قواعد ثابتة وأصول معروفة من قبل أضرت بالجزائر أكثر من سياسة التجارب بحسب الظروف والاحوال غير انه يجب مع ذلك ان تبنى السياسة المطلوبة على مبدأ واحد يتخذ أساساً لها وهو أن تكون مضادة لليهود على خط مستقيم ففي ذلك ضمان السلام والامن في تلك البلاد لان ما أتاه موسيو (كرميو) من جعل اليهود كلهم في الجزائر رعايا فرنساويين كان شؤماً على الدوام وما شؤمه آت من ان العرب اشمئزت لحصول اليهود على مالم يحصلوا هم عليه كما ذهب البعض بل هو آت من ان ذلك العمل أوجب اطلاق السراح لقوم يرى العرب انه كان من الواجب بقاؤهم تحت سيطرتهم وخالف ما في نفوسهم من عظيم الاحتقار لليهود ومكن هؤلاء من الانتقام على ما أصابهم من المسكنة في سالف الازمان اما العرب فهم يأنفون من التجنس بالجنسية الفرنساوية لكون ذلك يلجئهم الى ترك دينهم كما قلنا ولكنهم يبغضوننا لانا منحنا هذا الامتياز لاناس اعتادوا أن يروهم دون اقدامهم وقد وصل تغطرس اليهود اليوم ان لم نقل وقاحتهم الى حد في

الجزائر بحيث صار الخصام قريباً بين الفريقين فالمسلمون لا يطيقون احتمال ما احتمله المسيحيون وقد ازفت الساعة التي يقومون فيها جمعاء ليعيدوا بني اسرائيل الى ما كانوا فيه من الخضوع والامتهان ويكون الوقت قد فات لارجاع اليهود الى ملتهم وقد لا يسلم المسيحيون من محن الجزائر

ولقد نستخلص من ابحاثنا هذه أمراً آخر بالنظر الى سياستنا في افريقيا الوسطى وهو أمر سهل النوال ذلك اننا لا نشير على فرانسا بالتحالف مع المسلمين وان كانت هذه هي السياسة التي رآها فرنسوا الاول ولكنا نرى انه يجب عليها معاملة الاسلام في افريقيا بما يسعها من المحاسنة والتجمل فقد رأينا قبائل الفولبوسيين والخواصة اوصلوا نفوذهم الى تلك الاقطار الشاسعة التي تكتنف املاكنا في الكونغو فساروا سيراً متتابعاً من شادوا الى خط الاستواء ودخلوا الاسلام اينما حلوا ومن الصعب علينا ان لم نقل من المستحيل ان نوقف تيار هذه الحركة العظيمة فلنجتهد في الانتفاع منها بقدر الامكان ولنمتنع من التداخل فيما يحصل بين الأمم الاسلامية والوثنية من الانحلال والتكوين بل علينا ان نراقب هذه المعامع بين تلك الشعوب ولنترك الفولبوسيين يختطون من البربر مما لك على النسق الفطري القديم ولنحذو حذو سلاطين المسلمين فنضيف حمايتنا الى حمايتهم على أولئك القوم المنحطين ولنحذر على الخصوص من الوقوع في خطأ سياسة الاستعمار وهو اعتبار دائرة النفوذ مجالا للكسب والاعمال ولو عارض قوم بانه لا ينبغي ان يكون هذا شأن فرانسا المسيحية وانه يجب عليها ان تمانع جهدها انتشار الاسلام حول املاكها في افريقيا لتحصنت في الرد عليه برأي

الكاردينال (هرجوتر) وهو ان تاريخ الكنيسة يعتبر ان فناء الامم الوثنية فى الامم الاسلامية من المقاصد الالهية المحتمة قال الكاردينال (على الاسلام ان يهيئ الأمم العريقة فى همجيتها واخصها الامم الافريقية الى التمدن فانها بما فطرت عليه من الانحطاط فى الادراك وما تعودته من الشهوات محتاجة الى التحول عن الوثنية الى الاسلام ليتسنى تحويلها من الاسلام الى النصرانية لكن أنى لنا فى الوصول الى نقل تلك الامم من القرآن الى الانجيل وكيف يمكن ان يصير الوثنيون عباداً للمسيح بعد اعتناق الاسلام وهو الدين الذى يتمكن من القلوب فلا يفارقها هنا يختلط علينا المقصد الالهى فلا ندرك مرماه على انه لو لم يكن للاسلام من فائدة الا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين الى موحدين وترقية اخلاقهم وملكاتهم لكفى بذلك داعياً الى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال جرياً على قاعدة العمل بأخف الضررين